مجلة العلوم الاجتماعية
المجلد 08 / العـدد: 02 مكرر (الجزء الثاني) / جويلية 2019 / ص ص 224 - 235
عدد خاص بالندوة الوطنية: المرأة في الخطاب السوسيولوجي مقاربات الجنس والجندر (النوع الإجتماعي)

لمحة سوسيو تاريخية لتمثل المرأة في المجتمعات

Socio historical overview of the representation of women in societies

خالد بن فافة [1] ، ختو حمال [2]
[1] المركز الجامعي غليزان (الجزائر)، khaledbenfafa@hotmail.com
[2] جامعة وهران 2 (الجزائر)، khattouta@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/06/14 تاريخ القبول: 2019/06/27 تاريخ النشر: 2020/02/27

ملخص:
أثارت المرأة الكثير من الحديث والدراسات، كونها اتسمت بالغموض والتناقضات، فقيل فيها فلسفيا ما لم يقال فنيا أو أدبيا، وإذا أردنا توضيح صورتها كتمثل اجتماعي بالمجتمع الجزائري، نجد العديد من الباحثين يؤكدون على صعوبة الأمر، لغموض صورتها في التراث من جهة وندرة الدراسات العلمية المعمقة من جهة أخرى، باستثناء الدراسات المهتمة بالقضايا الدينية، لذلك سنحاول في مداخلتنا الحديث عن أهم التمثلات المكونة لصورة المرأة عند بعض الحضارات والثقافات السابقة.
كلمات مفتاحية: المرأة، التمثلات الإجتماعية، المجتمع الأمازيغي، الحضارة العربية، عصر النهضة.

Abstract:
The women raised a lot of talk and studies, because it was characterized by ambiguity and contradictions, where it was said philosophically unless it is said technically or morally, and if we want to clarify its image as a social representative of Algerian society, we find many researchers emphasize the difficulty of it, the vagueness of its image in the heritage on the one hand and the scarcity of in-depth scientific studies On the other hand, with the exception of studies interested in religious issues, we will try to talk about the most important representations of the image of women in some civilizations and cultures.
Keywords: women, social representation, Amazigh community, Arab civilization, renaissance.

المؤلف المرسل: ختو حمال، الإيميل: khattouta@yahoo.fr

مقدمة:

تنوعت الكتابات التي اهتمت بالمرأة والتمثلات المتعلقة بمكانتها ووضعها بالإضافة إلى الإهتمام بواقعها الاجتماعي والثقافي، نجد من بينها من يدافع عن المرأة ويثمن دورها في المجتمع، إلاّ أنّ هناك من يعتبر هذه الأخيرة نقطة إلتقاء ومركز كل العقد النفسية والإجتماعية وسبب إختلال التوازن الإجتماعي والفوضى السائدة.

لقد اختزل التمثل الاجتماعي التقليدي للمرأة في جسدها، فأنوثتها هي قدرها ومحددة لمصيرها، وحتى القوى العقلية للمرأة مكيفة بأخلاق الأنوثة.

إن النظرة التقليدية للمرأة تحدد لها بأن تزاول كل الأعمال داخليا، فالمرأة إذا خرجت للعمل خارج بيتها، وزاحمت الرجال، ضاعت أنوثتها ومميزاتها، فلا تكون بعد ذلك امرأة ولا تستطيع أن تكون رجلا، ولا أثر يذكر لها في الدراسات الاجتماعية، إلا نادرا، إنها موضوع الغزل لا العلم، في ثنايا كتب الشعر والأدب، توحي بأنها خلقت والعاطفة لا العقل، وصورتها المتناثرة قاصرة وعاجزة، وأن قصورها كامن في طبيعتها، لا يصح وجودها إلا بالرجل، إنها ملحقة به ومن متاعه.

تعتبر الثقافة التقليدية المرأة كائنا عجيبا، ورمزا للغواية والشرف، ولما كانت المرأة رمزا لشرف الجماعة، نجد الرجال يحرصون أشد الحرص على السلوك الأخلاقي للمرأة فيبالغون في مراقبتها، وهي بذلك تكون خاضعة للوصاية الذكورية الأبدية، لا تبلغ سن الرشد مهما بلغ عمرها مادامت الثقافة التقليدية بما فيها الشعبية بوصفها تعبيرا عن اللاشعور الجمعي، تعتبر المرأة إنسانا قاصرا وجنسا، فلا يمكن لها أن تكون مصدرا للأخلاق. لذلك سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نقف على أهم التمثلات المتعلقة بالمرأة سوسيولوجيا وتاريخيا.

تمثل المرأة عند الأمازيغيين:

يتضح لنا بكل جلاء أن للمرأة في المجتمعات الأمازيغية دورا بارزا، ومهما عبر كل مسارات الحياة بمختلف أوجهها، وتوجهاتها، فهي ليست عنصرا ثانويا، بقدر ما هي الحياة ذاتها على مستوى جميع المجالات كما يراها الرجل، مادامت تنتج وتعمل وتربي وتساهم في الحرث والزرع والخزف والنقش...

فالرجل لم ينظر إلى المرأة نظرة جنسية استغلالية، بل نظر إليها نظرة إنسانية حضرية، فكانت المجتمعات الأمازيغية عبر التاريخ مجتمعات أميسية لا بطريكية، لا يسودها الفكر الرجولي الذي ينظر إلى المرأة باعتبارها عنصرا ناقص العقل والدين.

إن النظرة الأمازيغية الحضارية حققت "المجتمع الأميسي الذي ساهم في تحرير المرأة وتكسير القيود عنها، وتمتيعها بحقوقها وحريتها، لتتمكن مع مرور الزمن من اعتلاء الشؤون السياسية والعسكرية، مثل الكاهنة، وزينب النفزاوية، وتينهينان..." (بوروينة 2003، ص85)

حتى ما قبل التاريخ، عاشت المرأة الأمازيغية في مجتمع أميسي دون فكر رجولي يقيد حريتها، ويتبين من خلال أسماء الآلهات كآلهة "نتيت"، ومن خلال نسب الأبناء للأم بدل الأب، إلى غير ذلك من السمات التي تفيد أن الرجل الأمازيغي كان يقدر المرأة ويحترمها باعتبارها أختا وأما وليس جارية، حتى صارت المرأة عند الأمازيغ أكثر من الجنس والنوع، إذ ساوى بينها وبين الأرض، ورآها تمثل الخصوبة والحياة والهوية والانتماء.

تاريخيا تبقى المرأة الأمازيغية عنصرا مقاوما، مكافحا، منتجا، ومبدعا. وقد حملت كل معاني "السيميولوجية الدالة على الخصوبة والمطر، اعترافا بجميلها في سبيل الهوية، فهي عروس المطر القادرة على إحياء الأرض بعد الجفاف والحروب والأوبئة" (ديورانت، د.ت، ص11).

تمثل المرأة العربية قبل الإسلام:

اعتمدت مرحلة التاريخ العربي قبل الإسلام على بعض الأنشطة الاقتصادية، كالصيد والرعي والتجارة والزراعة، ولم تكن الأوضاع الاجتماعية في تلك المرحلة مستقرة، فلم يشكل العرب في تلك العصور وحدة سياسية اجتماعية تنظمهم، بل كانت التقسيمات السياسية حافزا لنشوء مجتمعات متباينة تظم طبقات اجتماعية وفئات دينية متمايزة، ونتيجة لهذا التمايز، كان للمرأة وجود يختلف من فترة لأخرى ومن فئة لأخرى ومن وحدة لأخرى، لذلك لابد عند دراسة واقع المرأة في تلك المرحلة من الأخذ بعين الاعتبار قوى الحياة الاقتصادية والاجتماعية، الفكرية والسياسية للمجتمع الذي كانت المرأة تعيش فيه.

لقد عانت المرأة من النظرة الدونية لقدراتها وإمكانياتها، ودورها في المجتمع بالرغم من الإسهامات الكثيرة التي كانت تشارك بها في مختلف مناحي الحياة، حيث شاركت في الحياة الاقتصادية، من خلال الصناعات التي قدمتها للمجتمع وطلبت الرزق من ورائها، "منها الصناعات الغذائية، كطحن الحبوب وصناعة الخبز والزبدة والسمن، والصناعات النسيجية كغزل الصوف والوبر والقطن ونسجها، وصنع الأواني الفخارية" (الكبرة، د.ت، ص33)

لم تقتصر على ذلك، بل عملت في ميدان الطب كتضميد الجراح وتجبير العظام، بالإضافة إلى صناعة العطور وبعض أنواع الأسلحة كالرماح، كما شاركت المرأة في ميدان التجارة بفعالية كبيرة، سواء بالقيام بأعمال البيع والشراء بنفسها أو بتوظيف أموالها.

بالإضافة إلى ذلك لعبت المرأة دورا هاما في الميدان السياسي، حيث تولت بعض النسوة الرئاسة وشاركن في الأمور العسكرية، وعملن في التحكيم بين المتخاصمين وفي ايجاد أحكام سليمة وجديدة للمجتمع، وهكذا لعبت المرأة دورا فاعلا وايجابيا في الميدان السياسي على الرغم مما يبدو من خمود صورتها في الميدان الاجتماعي. وعلى الرغم من ذلك، لم تنج المرأة مما تعرضت له من هدر كبير في مكانتها واستخفاف بطاقاتها، فكان المجتمع في ذلك الوقت لا ير قيمة لما تقدمه من أعمال، معتبرا إياها أضعف فكرا وعملا وإنتاجا ونفعا من الرجل.

إن نظرة متفحصة لذلك الوضع، تظهر أن سيادة الرجل وملكيته المطلقة، خاصة لوسائل الانتاج، وما نتج عن ذلك من قيم اجتماعية، أسهمت في استغلال الرجل للمرأة أشد الاستغلال، مما أدى إلى سيطرته عليها والتصرف بها وبحياتها كما يريد.

فالمرأة لم تكن تملك في اقتصاد ذلك المجتمع إلا طاقتها الحيوية، تبذلها عملا وجهدا بمردود ضعيف، شأنها في ذلك شأن العامل الذي لا يملك إلا جهده، يبيعه لصاحب العمل، مالك رأس المال، فيستغله كما يريد.

تأكد ذلك بوجود نموذج للنساء كن يملكن رأس المال، فكانت أعين المجتمع تسعى إليهن وكن ينلن حظا من التقدير والاحترام، مثل خديجة بنت خويلد.

هكذا فإن الفعالية الكبيرة التي مارستها المرأة في مرحلة التاريخ العربي قبل الإسلام، اعتمدت في الغالب على عملها فقط دون ملكيتها لوسائل الإنتاج، لذلك لم تنل حظها من الإعتراف بحقوقها وقدراتها، بل كثيرا ما كانت حياتها ومكانتها تتحدد بالاهتمام بشؤون المنزل وتأثيثه وترتيبه، والانصراف إلى تدبير اقتصاد الأسرة ومعيشتها، إضافة إلى إنجاب الأطفال، باعتباره من الأعمال الملتصقة بطبيعتها وتكوينها، والتي يمكن أن تسهم في إعطائها مكانة خاصة إذا أنجبت ذكورا، نظرا لأهميتهم في سعادة الأسرة والقبيلة وفخرها، على الرغم من أن الإناث كن يشكلن في نظر البعض أحيانا مصدر رزق مادي للأسرة ومعنوي للقبيلة، في حال زواجهن من خارجها.

لقد كانت العلاقة بين الرجل والمرأة في المجتمع العربي الجاهلي تستند إلى الفروق الجسمية والفيزيولوجية بينهما، فالرجل هو الأقوى بنية وتفكيرا ونشاطا، لذلك فهو صاحب السيادة في الأسرة والسلطة العليا في المجتمع، والمرأة منذ طفولتها تغذى بهذه النظرة، فتنشأ مؤمنة بسلامة الامتيازات التي يتمتع بها الرجل في نطاق الأسرة والمجتمع.

المرأة في عصر النهضة:

تعرضت الأمة العربية في مرحلة التخلف والانحطاط، لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية صعبة، انعكست معطياتها على أوضاع المرأة، فطمست كثيرا من السمات الرئيسية التي تم التأكيد عليها في مراحل سابقة، والتي تبرز مكانة المرأة ودورها في المجتمع، ترافق ذلك مع ظهور أعراض مرضية عديدة، فمشاركة المرأة في بناء المجتمع يعتبر سمة أساسية في التراث العربي الإسلامي، أما عبوديتها فمسألة ترتبط بأعراض التخلف وليس بجوهر التراث.

لقد ربط ابن رشد بين تخلف المرأة وتخلف المجتمع حين قال: "إن معيشتنا الاجتماعية الحاضرة لا تدعنا ننظر ما في النساء من القوى الكامنة، فهي عندنا كأنها لم تخلق إلا للولادة وإرضاع الأطفال، ولذلك تفني هذه العبودية كل ما فيها من القوة على الأعمال العظيمة، هذا هو السبب في عدم وجود نساء رفيعات الشأن عندنا، فضلا عن ذلك، فإن حياتهن أشبه بحياة النبات، وهن علة على رجالهن، لذلك كان الفقر عظيما في مدننا، لأن دور النساء فيها مضاعف لعدد الرجال، وهن عاجزات عن كسب رزقهن الضروري..." (ابن رشد، 1998، ص101).

مع أن قول ابن رشد هذا جاء قبل ثمانية قرون، فإن الكثير من مضامينه نجدها اليوم في مجتمعنا العربي، ومن الواضح أن تحليل ابن رشد يربط بين التخلف الاجتماعي، الاقتصادي وتخلف المرأة، وهي نظرة متقدمة جدا، حتى في مفردات الفلسفة العربية الاسلامية نفسها. هذا ما جعل ابن رشد خاتمة منطقية للأفكار الفلسفية والاجتماعية التي صاغها الفلاسفة العرب ابتداءا من "الكندي" حتى "ابن خلدون"، مرورا بابن سينا والغزالي وابن تيمية والجرجاني...

المرأة في تصور هؤلاء لا يقاس تقدمها أو تخلفها، إلا من خلال تقدم اقتصاد المجتمع وتأخره، لقد رأى ابن رشد ما لدى المرأة من قوة قادرة لو استخدمت بطريقة معاصرة أن تغير الكثير، ليس فقط في النظرة حولها كامرأة، وإنما أيضا في دورها الفاعل في البناء الاجتماعي، فقد أوضح أن العبودية تقضي على قوى المرأة وقوى المجتمع معا، لهذا عدّ تخلفها تخلفا اجتماعيا.

إن تاريخ المرأة العربية زاخر بالبطولات والأحداث، أما الكبوات فهي أعراض ارتبطت بظروف التخلف والجهل، وعلى الباحث أن يميز بين السمات الأساسية لواقع وأوضاع المرأة العربية ومعاييرها الصحيحة، وبين الأعراض المرضية التي تداخلت وانتقلت بعد ذلك إلى مسببات، مما أدى إلى الخلط بين ما هو أصيل في التراث، وما هو دخيل عليه.

إن أسلوب التمييز بين السمات والأعراض يعتبر مسألة جوهرية في التعرف على الخصائص الأساسية لواقع المرأة العربية، بما يعمل على تدعيم وتنشيط بعض خلاياه التي ضمرت خلال فترة الانحلال والتخلف والاستعمار، فيشاع مثلا أن المرأة العربية لا تتعدى كونها

عنصر لا فاعلية له، بعيدة عن كل ما يجري في المجتمع الذي تعيش فيه، وعقلها غارق في الجهل، ليس لها اهتمام، وهي منذ ولادتها أمة لا تحيا بنفسها ولا لنفسها، إنها بالرجل وللرجل، زوجا كان أم أبا، تنظر بعينيه وتسمع بأذنيه، وتحيا بإرادته وحده ولا عمل لها سوى الإنجاب والقيام بأعمال المنزل في مجتمع جاهل متخلف.

غير أن الواقع والتاريخ يؤكدان عكس ذلك، فقد مارست المرأة العربية عبر التاريخ وتمارس الآن ما كان معروفا جاريا، وما هو موجود بالوقت الراهن من وجوه النشاط السياسي، الاجتماعي والصحي والمدني والاقتصادي والنضالي، بجدارة وحرية كالرجل تماما.

لقد ظهرت بعض الصيحات الفكرية التي دعت للنهوض بواقع المرأة وتعزيز مكانتها من جديد، ارتبطت بداياتها ببعض المفكرين العرب الذين زاروا أروبا أو درسوا فيها، وعادوا إلى بلادهم العربية، من بينهم "رفاعة الطهطاوي" و"بطرس البستاني و"أحمد فارس الشدياق" و"عبد الرحمان الكواكبي"...

فالطهطاوي على حد قوله، كتب في مشاهداته في فرنسا "...كي يوقظ من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم..."(الطهطاوي، 1905، ص5). فقد وصف المرأة الأوروبية، وتحدث عن مشاركتها للرجل في جميع القضايا العامة من بيع وشراء وأعمال يدوية وإدارية ودعا إلى تعليم المرأة العربية لتأخذ دورها في المجتمع إلى جانب الرجل.

كما نجده يقرن فكرة الحرية الاجتماعية التي رآها هناك، بما هو موجود في الشريعة الإسلامية، التي سوت بين الجميع في العدل والإنصاف، وبهذا الأسلوب تم التمدن في سائر الأقطار، وقد دفعه إيمانه بضرورة التجديد والتطوير إلى البحث في تربية الفرد الذي سيقوم به.

فكتب لهذه الغاية كتاب "المرشد الأمين للبنات والبنين" (بركات، 1982، ص341) طالب فيه بتربية النشء تربية دينية أخلاقية تهدف إلى إصلاح المجتمع، ودعا إلى تعليم البنات لأن حصول "النساء على ملكة الكتابة والقراءة، والتخلق بالأخلاق الحميدة، والإطلاع على المعارف المفيدة، هو أجمل صفات الكمال، فالأدب للمرأة يغني عن الجمال، لكن الجمال لا يغني عن الأدب، وآداب المرأة ومعارفها تؤثر كثيرا في أخلاق أولادها، إذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط أمور البيت والإنشغال بتربية أولادها، جذبتها الغيرة إلى أن تكون مثل أمها"(الطهطاوي، 1905، ص69)، كما أنه يرى أيضا أن عفة النساء لا تتعلق بكشف الوجه أو ستره، بل بالتربية، فيقول: "إن وقوع اللخبطة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة..." (الطهطاوي، 1905، ص101)، التربية التي رأى فيها مصدر نهوض الأمة وترقيتها في الحضارة والعمران، فالأمة التي حسنت تربية أبنائها، تعد أمة سعيدة

والأمة التي تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها أيضا التمدن على وجه تكون به أهلا للحصول على حريتها.

أما المعلم بطرس البستاني، فيعتقد أن الله عندما منح المرأة القوى العقلية والأدبية، لم يفعل ذلك عبثا، وإنما ليكون لها حق التصرف بها وتهذيبها وتوسيعها بحسب الاقتضاء، ولا يصدق أن الخالق عز وجل قد زين المرأة بهذه الصفات، ولكن حرم عليها استعمالها.

دعا "البستاني" إلى تعليم المرأة لأن المرأة من دون علم شر عظيم في العالم، إذا لم تكن أعظم شر يمكن تصوره، فمن العلم ما يرجع بالفائدة على المرأة المتعلمة نفسها، يوسع قواها العقلية ويهذبها ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه، ويقوم إرادتها وعواطفها الأدبية، ويرتب سلوكها وتصرفها. ومنه ما يعود على زوجها، " فتكون له زوجة فهيمة وصديقة مشفقة، ومشيرة حكيمة، وقرينة أمينة في تأدية واجباتها له، ومساعدة له في أعماله ومخففة لآلامه ومربية خبيرة لأولاده، وحافظة لترتيب بيته وتدبيره. ومنه ما يرجع على أولادها، لأن الولد يقبل المؤثرات الأولى من أمه، لأنها أول مخلوق يقع تحت حواسه ومدركاته." (البستاني، 1981، ص79)

رأى البستاني أنه من الضروري تعليم النساء العربيات والإعلاء من شأنهن، كي يتسنى لهن حمل الرجال على تغيير حالهم وهو ما يعتبر ضروريا لتطوير الشعب كله، ويدلل على ذلك بالإشارة إلى ما حققته أوروبا من نجاحات وتقدم، ارتبط في أحد محاوره في أن المرأة أخذت تشغل مكانة أرقى في المجتمع.

لقد عنى "أحمد فارس الشدياق" بالمرأة العربية، بعد زيارته باريس وملاحظته للمرأة الفرنسية وما تتمتع به من حقوق في الزواج والعلم، فدعا إلى تحرير المرأة بتعليمها، وقارن بين حياة المرأة الأروبية وحياة المرأة العربية، وعن موقف الرجل من المرأة في كل من المجتمعين. وطالب بجعل حياة المرأة أكثر إنسانية بتعليمها، " لأن العلم يصرف المرأة عن الإنشغال بالأمور التافهة، فالمرأة إذا انشغلت بالعلم كان لها به شاغل عن استنباط المكائد واختراع الحيل " (الشدياق، د.ت، ص63)، ودعا إلى تعليمها أسوة بالرجل، لأن في تساوي الرجل والمرأة في العلم والعمل شرط التمدن، كما أن العلم يساعدها على رعاية شؤون أسرتها وتربية أطفالها. فضمّن كتابه "الساق على الساق" أحاديث عن النساء، أقر فيها بحقوق المرأة العربية المسلمة والمسيحية، واعتبرها إنسانا مساويا للرجل، وانتقد الرجل الذي يظن أن المرأة لم تخلق إلا للتناسل. كما عارض حجبها في البيوت ودعا إلى خروجها للحياة العامة.

أما "عبد الرحمن الكواكبي" (بركات، 1982، ص65) فقد تحدث عن المرأة ودورها في التربية و بالمجتمع، ودعا إلى تحريرها من الجهل، أما "جمال الدين الأفغاني" فلم تأخذ قضية المرأة حيزا كبيرا من تفكيره لانشغاله بايقاظ الأمة الإسلامية وتحريرها من الاستعمار الغربي، ومع ذلك أشار في كتاباته، إلى تعالي الحديث عند بعض المشارقة حول مطلب المساواة بين الجنسين، وحين تحدث عن مركز المرأة في المجتمع، رأى أن المساواة بين الرجل والمرأة مستحيلة لاختلافهما من حيث التكوين الفيزيولوجي، لكنه لم يرجح كفة أحدهما على الآخر من حيث الكمال والنقص. وفي المرحلة الزمنية ذاتها، عاش الشيخ "محمد عبده" الذي يعد أهم عقل وأبرز مجتهد في مدرسة التجديد الإسلامي منذ بداية عصر النهضة، وقد تناول في تفاسيره وفتاواه، ومقالاته بعض قضايا المرأة مثل مفهوم الزواج، المساواة، الطلاق، تعدد الزوجات، وكان فهمه للآيات القرآنية ولأحكام الإسلام بخصوص حقوق المرأة، فهما تنويريا ولاسيما ما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات.

بعد ذلك أخذت الدعوات إلى تحرير المرأة تتزايد وتتصاعد خاصة في مطلع القرن العشرين، مؤكدة على أن تحرير المرأة يعتمد على محاور عديدة وليس فقط على تعليمها، حيث ربط "قاسم أمين" بين ارتقاء المرأة وتقدم الأمة ومدنيتها.

كما ربط بين انحطاط المرأة وانحطاط الأمة وتوحشها، وأشار في بعض بحوثه إلى واقع المرأة المتدني، وأرجع اضطهادها، إلى الحكم السياسي المستبد للرجل المضطهد له، وينعكس ذلك على المرأة أيضا، وبرفضه لذلك الواقع وتأكيده أن للنساء حرية السلوك المطلقة مدنيا وقانونيا واجتماعيا واقتصاديا، أتى "قاسم أمين" بأدلة تثبت تلك الحرية وأصولها في التشريع الإسلامي، الذي أكسب المرأة مكانة جليلة في الهيئة الاجتماعية بمساواتها بالرجل في الحقوق والواجبات معا، وليس في أحدهما على الآخر.

لقد وهب قاسم أمين كل جهوده وجميع آثاره تقريبا، لقضية المرأة، فنادى بتعليمها لتتمكن من القيام بالدور التربوي المنوط بها، و"تعرف ما يكفي لكي تلقن أبنائها مبادئ الأخلاق والفضيلة، ولتقدم لهم شرحا عمليا للأشياء التي تحيط بهم، ويجب أن تعرف دائما كيف تجيب على تساؤلات الطفولة التي لا تنقطع" (قاسم أمين، 1976، ص281).

كما أكد على تأثير التنشئة الاجتماعية على تكريس ذلك الواقع أو تغييره، لذلك دعا إلى تربية المرأة وتنشئتها بأسلوب عملي يتماشى مع ضرورات التطور، بالإضافة إلى تحريرها من مسار الجهل والأمية، حيث يرى أن التعليم وحده لا يكفي إذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية، لا تكتسب في المدارس والمكاتب، ومن خلال القراءة والحفظ، بل لابد من ممارستها، كما رأى أن حصول المرأة على قدر من المعارف العقلية والأدبية، وأصول الحقائق التاريخية والعلمية ومبادئ الفضائل

الدينية والأخلاقية، يمكنها من القيام بوظيفتها في الهيئة الاجتماعية، حيث يسمح التعليم بانشغالها، واستعمال مداركها وقواها لتصبح نفسا حية، تنتج كما تستهلك ولا تعيش عالة على أحد، ولا تحيا بعمل غيرها، ويكون من أثر عملها ازدياد الثروة للأمة، ومن جهة أخرى "يجعل التعليم من المركب المنزلي في العائلة (الرجل والمرأة) وجودا متحدا متكاملا"(قاسم أمين، 1976، ص73)، أكد قاسم أمين إنسانية المرأة فقال: "المرأة، وما أدراك ما المرأة؟ إنسان مثل الرجل، لا تختلف عنه في الأعضاء ووظائفها، ولا في الإحساس ولا في الفكر، ولا في كل ما تقتضيه حقيقة الإنسان من حيث هو إنسان..." (قاسم أمين، 1976، ص19)، وكان يرى أن العائلة هي أساس الأمة، وأن المرأة هي أساس العائلة، والأمر الذي يلزم أن تلتفت إليه كل أمة لا تغفل عن مصالحها الحقيقية هو وجود النظام في العائلات التي يتكون منها جسم الأمة، ولما كانت المرأة هي أساس العائلة، كان تقدمها وتأخرها في المرتبة العقلية أول مؤشر في تقدم الأمة وتأخرها.

لاشك أن مؤلفات قاسم أمين ومؤلفات أمثاله من مفكري عصره، نبهت الرجال إلى أن المرأة دون سواها هي سبب التقدم والارتقاء، أو علة التقهقر والانحطاط، وأحدثت أثرا في المجتمع على الرغم من الهجوم الذي شنه المحافظون والرافضون لرياح التغيير الاجتماعي.

تجدر الإشارة إلى أن موقف هؤلاء الرواد على أهميته، ظل موقفا تقليديا، لإقتصارهم في دعوتهم على حث المجتمع على تعليم المرأة وتحريرها من الأمية والجهل، ورفضهم في الوقت ذاته منحها حق العمل خارج المنزل، أو تعاطيها الصناعة أو التجارة، أو استلامها أي منصب فاعل في المجالات السياسية أو القضائية أو الدينية، مع إقرارهم بحقيقة المساواة الإنسانية بينها وبين الرجل، وكانوا يرون أن عملها هو الإشراف على بيتها وتربية أولادها، لكنهم تجاهلوا أنه ما من أمة قادرة على النهوض وأحد شقيها مائل، والنهوض لا يكون إلا بتعاون الرجل والمرأة، وتكامل دوريهما.

لابأس بالتذكير، أن فكر هؤلاء الرواد بشأن قضايا المرأة، لم يكن فكرا واحدا، بل كان متعددا ومختلفا ومتناقضا، لأنهم لم يستطيعوا أن يتحرروا من النظرة التراثية القديمة التي ترى أن المرأة لم تخلق، إلا لتمتع الرجل في الفراش.

قد يعود هذا التناقض إلى أن خطاب النهضة، كما يراه الباحث "نصر حامد أبوزيد": "كان مشدودا إلى بعدين لا يفارقان بنيته، البعد الأول: هو وطأة التطور، متمثلا في الاحتكاك المباشر بالمجتمعات الأوروبية المتقدمة، سواء عن طريق التعرف على منجزاتها من بيئاتها الأصلية، والتعرف على سلوك أهلها وعاداتهم في بلادهم، أو في الاحتكاك بهم داخل أقطار الوطن العربي، أما البعد الثاني، فهو بعد التقاليد والتراث، متمثلا في مبادئ الإسلام وتشريعاته..." (جمانة، 2004، ص261).

ولو عدنا إلى آراء الطهطاوي، نرى أنه على الرغم من إعجابه بسفور المرأة الفرنسية، واختلاطها بالرجال، طالب في كتابه "المرشد الأمين" (الطهطاوي، 2002) المرأة المسلمة بالاحتجاب عن الأجانب، ومع أنه أكد أن المرأة لا تقل عن الرجل ذكاء وحساسية، منع عنها حق الحكم والقضاء تماشيا مع الشريعة الإسلامية التي حظرت عليها ذلك على حد قوله، ومع أنه طالب بتعليمها ليتسنى لها أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجل على قدر قوتها، "يعود ويقول إنها أعدت لحفظ المصالح المنزلية"(جمانة، 2004، ص262).

أما "قاسم أمين" الذي يقول في كتابه "المرأة الجديدة" (قاسم أمين، 1993، ص37) أن الاختلاف الفيزيولوجي لا يعني البتة أن الرجل أفضل وأرقى من المرأة، ولا يرجع هذا الاختلاف إلى الفوارق الطبيعية، إنما إلى الاختلاف في التربية مما تراكمت آثاره عبر الأجيال، فأدت إلى التباين بين الجنسين، فالفارق قد صنعته في الأساس الظروف الاجتماعية التي استمرت دهرا طويلا، وفرضت على المرأة المكانة المتدنية، يبدل في أفكاره في مواقف أخرى، فبعد أن دافع عن نظام الحجاب كما كان سائدا عام 1894 في كتابه "المصريون" (قاسم أمين، 1995)، ينتقد النظام ذاته في كتابه "تحرير المرأة" في عام 1899، ويطالب بتقييده وفق حدود الشريعة الإسلامية التي أباحت للمرأة كشف الوجه واليدين، في حين يعتبر المرأة الأوروبية نموذجا لتمدن المرأة المصرية والشرقية في كتابه "المرأة الجديدة" عام 1900، وهكذا نلمس هذا التغيير والانتقال حتى في رؤيته لمسائل الطلاق وتعدد الزوجات.

لقد اتجهت دراسات أخرى نحو التأكيد على الجو القيمي الذي تعيشه المرأة، وأنه يشكل إحدى العقبات التي تقف في طريق تحررها، واضطلاعها الكامل بدورها، ذلك أنه مازال في تطوره غير قادر على اللحاق بركب التغيرات والتطورات الاقتصادية والاجتماعية خاصة، وأن هذه التغيرات والتطورات تستدعي أن تشارك كل القوى المنتجة في بناء المجتمع، ولم يعد ملائما أن تبقى المرأة قوة غير منتجة وملحقة بالرجل.

غير أن بعض العادات والمعايير والقيم مازالت متأثرة بالأوضاع القديمة، ترفض دخول المرأة ميدان العمل، وتوظف كثيرا من الطاقات لمنعها من ذلك سواء كان على المستوى الفردي أو الاجتماعي، مما يؤدي إلى إفراغ شخصيتها وحصر تفكيرها ووعيها في إطار فهم خاطئ لطبيعة المرأة، يبرز في الاهتمام بمظهرها وطرق العناية به، وبقدر ما تتفنن في ذلك، فإنها ستحظى بوضع قد تحسدها عليها الكثيرات.

قد تكون "زينب فوّاز" أول صوت عربي نسائي، يطالب بحقوق المرأة في العصر الحديث، إنما ضمن أوسع الحدود التي تسمح بها الفهم التقليدي للإسلام دون جهد تجديدي معتبر، فرسائلها الزينبية الداعية إلى إنصاف المرأة ومنحها فرص العلم والعمل والتعبير، جاءت سابقة لدعوة "قاسم أمين".

لقد دافعت زينب عن حقوق المرأة ووجوب تعليمها، وحثت على تقدم النساء، واكتسابهن العلوم، ورأت أن الرجل والمرأة جنسان مشتركان في سراء وضراء هذه الحياة، ولا يمكن لأحدهما أن يستقل عن الآخر.

كما رأت أن الروح جوهر مجرد، لا ذكر ولا أنثى، وأشارت إلى أن "الشرائع الإلهية لم تمنع المرأة من التدخل في أشغال الرجال، فالمرأة إنسان كالرجل ذات عقل كامل وفكر ثاقب وأعضاء متساوية، تقدر الأمور حق قدرها" (فواز، 1996، ص22).

كما أشارت باحثة البادية "ملك حنفي ناصيف" (الدهان،1982، ص490).إلى أنه من الظلم إصلاح المرأة من خلال الأساليب التي جربتها المرأة الأوروبية في إطار التطور الذاتي للمدنية الغربية، فقضية المرأة في حاجة إلى عملية نقد اجتماعي للعادات والتقاليد وتربية للمرأة وتعليمها واستصدار قوانين تخفف من ويلات الطلاق والزواج.

الخاتمة:

المرأة إذن في المنظور التقليدي محكومة بأنوثتها، هذه الأخيرة تحدد مصيرها، ولكن بفضل التربية والتعليم، ودخولها عالم الشغل، بدأ هذا التمثل الاجتماعي للمرأة –في نظام القيم التقليدي– يفقد بعضا من أهميته، فالتعليم الإلزامي خلق جيلا جديدا أكثر ثقافة، ساهم في تغيير العلاقات والأدوار الإجتماعية.

المرأة قضية أساسية بما تمثله من علاقة اجتماعية، وإنسانية في بنية الواقع والحياة، ومادامت هذه العلاقة، جزءا من الموروث الحضاري، فإن أولى هذه المعطيات، تمثلها الذي لا ينفصل عن التراث المعرفي، وهي في الوجدان الشعبي بأبعاده التاريخية وموروثاته يتخذ تفسيرا متناقضا، هو تمثل صنعه أكثر من طرف، وساهمت المرأة نفسها في تشكيله.

قائمة المراجع:

1. ابن رشد(1998)، ترجمة أحمد شعلان، الضروري في السياسة، مركز دراسات الوحدة العربية،.
2. بركات سليم (1982)، مفهوم الحرية في الفكر العربي الحديث، مؤسسة الوحدة للصحافة والنشر والطباعة.
3. البستاني بطرس(1981)، دراسة وثائق جان داية، منشورات مجلة فكر، بيروت.
4. الدهان أميمة(1982)، المرأة العربية في الفكر الإسلامي المعاصر، دار النشر والتوزيع الكويتية، الكويت.
5. ديورانت ويل(د.ت)، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، ج 14، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة.
6. الشدياق أحمد فارس(د.ت)، الساق على الساق فيما هو الفارياق، المكتبة التجارية، القاهرة، ج1.
7. طه جمانة (2004)، المرأة العربية في منظور الدين والواقع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
8. الطهطاوي رفاعة(2002)، المرشد الأمين للبنات والبنين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
9. الطهطاوي رفاعة(1905) ، تخليص الإبريز في وصف باريز، دار التقدم، القاهرة.
10. فواز زينب(1996)، الرسائل الزينبية، المطبعة المتوسطة، القاهرة، ج1.
11. قاسم أمين(1993)، المرأة الجديدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
12. قاسم أمين(1995)، ترجمة قاسم أمين، المصريون، منشورات الهلال، القاهرة.
13. قاسم أمين(1976)، دراسة وتحقيق محمد عمارة، تحرير المرأة، في الأعمال الكاملة، المؤسسة العربية، بيروت.